البعد التاريخي في رواية المحنة الجزائرية
("براري الموت" لمرزاق بقطاش و"سيدة المقام" لواسيني الأعرج أنموذجا)

الأستاذ: علي محجوب
جامعة علي لونيسي- العفرون –البليدة

الملخص باللّغة العربية :
تطرقت الرواية الجزائرية المعاصرة، إلى ما عاشته الجزائر من محنة في فترة التسعينيات، و قد حاولت أن تستثمر شتى التقنيات في تصويرها للواقع المأساوي الذي ميّز هذه المرحلة، و قد لفت انتباهي حضور البعد التاريخي فيها، بحكم أنّ هذه المرحلة لا تنفصل عن ما جرى في عهد الاحتلال من صراع سياسي بين الطبقة السياسية و ما فعله الاستعمار من جرائم في حق الجزائريين، بالإضافة إلى ما عاشته الجزائر بعد الاستقلال، من خلافات أيديولوجية و سياسية أدت إلى تأزم سياسي في نهاية الثمانينيات، و الذي أفضى إلى موجة من العنف أثرت على حياة الإنسان الجزائري، و من هنا ستركز الدراسة على إظهار الأبعاد التاريخية في رواية المحنة الجزائرية، من منظور أدبي روائي لا كما يقدمها المؤرخ اعتمادا على المعطى التاريخي، التوثيقي البحت.

الملخص باللّغة الأجنبية:

Le roman algérien contemporain a abordé la crise qu'a vécue l'Algérie durant la décennie noire pendant les années quatre vingt dix.

Il a tenté d'exploiter divers techniques pour refléter la tragédie nationale qui a caractérisé cette période.

Ce qui a attiré, particulierement, mon attention est le fait suivant : la présence de la dimension historique : étant donné que cette période est intiment liée à la période coloniale avec ses luttes fratricides politique entre divers acteurs politiques algériens, en plus des exactions commises par le colonialisme français à l'égard de la population algérienne.

Les conflits idéologiques et politiques post indépendance, ont débouche sur une crise politique majeure à la fin des années quatre-vingt; entrainant une vague de violence inouïe,qui ayant avoir un impacte négatif sur la vie des citoyens algériens.

A partir de ce constat, mon étude sera axée sur la mise en évidence des dimensions historiques à partir d'une optique, strictement littéraire loin des thèses proposées par les historiens.

الكلمات المفاتيح:

الرواية – العنف – التاريخ – الثورة – الاستقلال – التسعينيات.

لقد مرّت الجزائر في التسعينيات، بمرحلة تاريخية عصيبة، تفجر فيها العنف بطريقة فجائعية، و هو عنف ناتج عن تراكم تاريخي، بدأ بالاحتلال الفرنسي و ما فعله بالجزائريين من قمع و تنكيل و اضطهاد، و وصولا إلى الصراعات السياسية بعد الاستقلال، و التي كانت امتدادا لخلافات الأمس، حين كان لكل توجه رؤيته الخاصة في تسيير الثورة لنيل الحرية و الاستقلال، و مع الانفتاح السياسي في الثمانينيات من القرن الماضي و تعدد الأحزاب السياسية بعد أحداث أكتوبر 1988 ، عاشت الجزائر حالت احتقان و تصادم فكري و اجتماعي و سياسي أفضى إلى موجة من العنف للتسعينيات و إذا "كان للعنف دور في إعادة ترتيب ميزان القوى السياسية و إعطاء رؤية جديدة للتاريخ فإنّ الكتابة الأدبية عندما تتخذه موضوعا لها تضفي عليه أبعادا جديدة تمارس عليه حساسيتها و جماليتها لتجعله أكثر بشاعة و وحشية"[1] و قد كانت الرواية الجزائرية المعاصرة مسايرة لما جرى من أحداث عنيفة، حاولت أنتنأى بها عن دائرة حقل النقاش الفلسفي و الفكري الخالصين لتعيد تشكيله من منظور جمالي و فني ذلك بغرض " نبذه و الاحتجاج عليه فضلا عن مقاومته بالكتابة من نحو ما فعل إخوان الصفا حين تكون محاكمة الإنسان على يد الحيوان و ما فعلته شهرزاد للإبقاء على حياتها أبعادا لسيف الجلاد على رقاب المظلومين و اغتدت سردية حي بن يقظان في الأندلس صورة أخرى عن صد القمع القائم على المعرفة "[2].

لقد وظف كتّاب رواية المحنة التاريخ، خلال تطرقهم لموضوع العنف، فممّا لا شك فيه أنّ التاريخ عنصر حيوي في العمل الروائي منذ نشأة الملاحم و حتى يومنا هذا يتراءى كزمان يحدد أبعاد الشكل الفني أو مضمونا يعكس فلسفة معينة أو موضوعا بأحداثه و شخصياته"[3]، و هذا لا يعني أنّ حضور التاريخ في النّص الروائي يكون

بالطريقة ذاتها التي نجدها في الكتب التي تؤرخ لمرحلة من المراحل التاريخية التي مرّت بها الشعوب لأنّ " الروائي يكسر استقلالية المادة التاريخية ما دام يخضعها لمنطق الحكي، مجردا إياها من الطابع التوثيقي الموضوعي بحيث تصبح مطوعة لبنينة الشخصيات و الأحداث الروائية"[4]،من هذا المنطلق جاء المنجز الروائي الجزائري مستثمرا المادة التاريخية في الكتابة عن العنف و من هذه الروايات ثلاثية مرزاق بقطاش ("خويا دحمان" و "دم الغزال" و "يحدث ما لا يحدث") و "سيدة المقام" لواسيني الأعرج.

1- تاريخ الثورة و عنف المستعمر:

يمثل توظيف تاريخ الثورة الجزائرية أهمية كبيرة في الأعمال الروائية الجزائرية المعاصرة وهو يحضر ليكشف بطريقة فنية عن حقائق من الماضي لا تزال فاعلة في الحاضر، فتناقضات الراهن هي جزء من متناقضات الأمس القريب، و قد عمد كثير من الروائيين إلى ربط الشخصية الروائية بأحداث تاريخية بارزة لكسر السرد التاريخي المباشر للأحداث ففي رواية "خويا دحمان" لمرزاق بقطاش تتداخل الأحداث الاجتماعية مع الأحداث السياسية الوطنية و العالمية، لتشكل بعدا رمزيا يتعلق بما جرى في الجزائر عبر مسارها التاريخي الطويل، فميلاد "دحمان" ارتبط بحدث عنيف و عدواني يتمثل في غزو فرنسا للجزائر تزامن الميلاد مع فعل العدوان يحمل دلالة التّحدي و المقاومة و البقاء و يؤكد السارد ذلك حين يقول: "نقول أنّك ولدت عام الريح، فما هو عام الريح هذا ؟ تزعم هذا الزعم و كأنّك ولدت فعلا عام الريح على غرار ما ولد آخرون عام الجوع و عام الجراد و عام التيفوس إلى غير ذلك من أعوام البؤس و الشقاء، يروقك القول بأنّك ولدت عام الريح، لكن هذا لا يعرفه أحد، النّاس يفهمونك عندما توضّح لهم بأنّك ولدت عام 1930 أي عام الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر"[5] لقد حاول السارد أن يصحح مفهوم الميلاد و الوعي بالتاريخ، لقد ظلّ الجزائري يربط لحظة مجيئه إلى الدنيا بأحداث كثيرا ما تحمل طابع المعاناة، الجوع، البؤس، عام الجراد، عام الريح، ليفتح أفق رؤيته على أنّ الآخر يتعامل مع الزمن تعاملا مغايرا، يحقق من خلاله منجزاته و طموحاته، فإذا كانت سنة 1930 هي سنة طموحات المشروع الاستعماري في احتلال الشعوب المستضعفة، فإنّها في الوقت ذاته ينبغي أن تشكل بالنسبة لدحمان لحظة استيعاب رمزيتها المرتبطة بضرورة المقاومة، فيستعد للنضال والتضحية لتحرير بلاده، لذلك نراه يربط لحظة الميلاد في سياق آخر بحدث يرتبط بالنضال و التضحية فيقول: "أمازلت يا خويا دحمان مصرا على القول بأنّك ولدت عام الريح؟ أنت ولدت في العام الذي نجا فيه و الدك من الذبح في أقاصي الهند الصينية، هذا هو التاريخ الصحيح ليوم ميلادك إذا كنت تحب الحقيقة"[6] و يكرر السارد في مختلف

أحداث الرواية عبارة "أمازلت يا خويا دحمان مصرا على القول بأنّك ولدت عام الريح...؟"[7]، و انطلاقا من هذا التصور الذي يستوعب حقيقة التاريخ، أصبح "دحمان" مقتنعا بضرورة النّضال من أجل انتزاع الحرية، لذا نجد أنّ بلوغ "دحمان" سن المراهقة كان متزامنا مع حدث تاريخي بارز و هو مظاهرات 1945، يقول السارد:"عام 1945 بلغت من العمر خمس عشرة سنة، كان عاما صعبا عليك و على إخوتك الجزائريين كلهم، الآلاف منهم حصدهم الرصاص حصدا عندما خرجوا للتظاهر و هم يظنون أنّ فرنسا مستعدة للبّر بالوعد الذي قطعته أثناء اندلاع الحرب، أي الحرية"[8].

لقد فتحت أحداث 8 ماي 1945 المجال أمام دحمان ليلج عالم السياسية بقوة، و ذلك من خلال ما يطالعه من صحف تتناول الواقع الجزائري و العالمي بل كان يشرح لأصحابه في المقاهي ما غمض من أخبارها و تعليقاتها"[9] و هنا تصبح السياسة وسيلة لمعرفة الواقع الاستعماري و متناقضاته و بالتالي فهي تمهد لتبني الشخصية و بقوة لمشروع المواجهة و التحدي و المقاومة، لقد كانت سنة 1950 تمثل مشروعا سياسيا و اجتماعيا بالنسبة "لدحمان" اجتمع فيه حدثان كان أحدهما اجتماعي و آخر سياسي، الأول يتعلق بتفكير "دحمان" في الزواج و الثاني يمثل الاستعداد للثورة.

إنّ اقتران المشروعين معا، يدل على أنّ ممارسات السياسي و تضحياته من أجل الحرية لا تنفصل عن المشروع الاجتماعي فزواج "دحمان" كمشروع اجتماعي لن يكون له معنى إلاّ إذا تحرر المجتمع من قيود المستعمر، "حدث ذلك 1950 إخوتك الجزائريون كانوا يفكرون في الدخول في مرحلة الكفاح المسلح ضد فرنسا انجذبت إليهم انجذابا طبيعيا كنت في قرارة نفسك مقتنعا بالعمل و ليس بالثرثرة السياسية التي لا تنفع أحدا ... عام 1952 هل تتذكر ما قمت به ذلك العام؟ لقد تزوجت"[10]. إنّ ممّا نلاحظه في عرض الروائي للأحداث، أنّ الرواية "تتخذ من المؤشر التاريخي المادة في رسم أحداثها"[11] كما أنّ الحدث بدوره يمنح للتاريخي أبعادا غير تلك التي نجدها خارج النّص لقد عبّر الروائيون عن طبيعة تفكير الشخصية الاستعمارية باستثمار ما وجد من طروحات عنصرية، تحدث عنها مؤرخون و جسّدوها في أحداث رواياتهم، كمعاملة السكان الأصليين بوحشية تشبه معاملاتهم للحيوان و هذا ما اعترف به كلود لوزيو حين تكلم عن النزعة الاستعمارية بقوله على لسان المحتل "بما أنّهم يتصرفون كالحيوانات المتوحشة فسوف نعاملهم معاملة الحيوانات"[12]، و هذا ما يصوره مرزاق بقطاش في روايته "خويا دحمان" حين يصف اعتقال والد "دحمان" من طرف رجال الدرك الفرنسيين "اثنان من رجال الدرك كانا على متن جواديهما و والدك مربوط بالحبل كأي حيوان من الحيوانات يمشي وراءهما متعثر الخطو مسافة عشرين كيلومتر كاملة من المكان الذي اقتيد منه إلى سجن لامبيز"[13]، و يتم هنا عزل الشخصية عن الخارج، مثل الحيوان الذي يشكل خطرا على الآخرين و يمثل سجن "لامبيز" كفضاء

تاريخي يشهد على وحشية المستعمر أهمية كبيرة في الرواية إذ يعد هذا الفضاء بمثابة شاهد تاريخي على المرحلة الاستعمارية فالروائي مثلما يستثمر الأحداث التاريخية البارزة فهو ينتقي فضاءات تاريخية حاملة لأبعاد رمزية تعكس معاناة شخصية النزيل كما تعطي صورة عن واقع الجزائر آنذاك: "و قبل أن يقذف داخل ذلك السجن اللّعين أبصر بالعديد من الناس واقفين على جانبي الطريق كل منهم يترجاه دون أن يقترب منه خوفا من الدركيين: يا عمي يا عمي أعطني ثيابك، فأنت داخل إلى لامبيز، كانت حقا أعوام بؤس و شقاء، و ظلت هذه الجملة تتردد في دماغي: أنت داخل إلى لامبيز و هو ينظر إليهم دون أن يفهم ما يقصدونه و خيّل إليه في لحظة من اللحظات انّه قادم من دنيا أخرى لشدّة ما التبس عليه الأمر و عندما أغلقت عليه أبواب ذلك السجن العتيد عرف السبب وراء تلك الترجيات الملحاحة"[14] و مثلما قدّم لنا سجن لامبيز دلالة تاريخية تتعلق بالمعاناة و العذاب، فإنّ ساحة الحصان كما تقدمها رواية خويا دحمان، تعكس مقولة أنّ تاريخ فرنسا هو جزء من تاريخ الجزائر، و ذلك حين نصب المحتل تمثال دوق أورليان في الساحة و قد أشار النّص إلى إقدام دحمان بمعية فتيان آخرين إلى اقتلاع ذلك التمثال، يقول السارد: "و ها أنت يا خويا دحمان تنزل بعد ذلك إلى ساحة الحكومة، ساحة الحصان كما يقال لها في أوساط الشعب منذ عام 1848 م جاءتك الأخبار بأنّ الفتيان اعتزموا اقتلاع "دوق أورليان" القابع في قلب الساحة منذ مائة و سبعة عاشر عاما وقفت تساندهم مرّة أخرى وهم يكدّون من أجل الإطاحة بذلك الرمز الاستعماري العتيد و كان أن عجزوا بطبيعة الحال لأنّهم افتقروا إلى العتاد المناسب لمثل ذلك العمل و ها هم في آخر المطاف يجيئون بصناديق السردين الفارغة من أطراف المرسى و يضرمون فيها النّار تحت قاعدة التمثال"[15]، إنّ السارد لم يقدم لنا مقولة الجزائر فرنسية بطريقة مباشرة مثلما ورد في سياق آخر[16] بل أظهرها من خلال الحدث، أي صورها في عملية إقدام دحمان مع باقي الجزائريين على نزع التمثال من الساحة.

2-مرحلة الاستقلال و عنف السياسة:

يتجلى لنا البعد التاريخي مرحلة ما بعد الاستقلال في رواية المحنة بشكل جلّي و واضح، فقد تطرق الروائيون إلى الصراعات السياسية التي وصلت أحيانا إلى حد الاقتتال، فقد تطرق مرزاق بقطاش إلى محاولة الانقلاب التي خاضها الطاهر زبيري ضد الرئيس الراحل هواري بومدين و شبّه صراعهم بصراع الضرائر: "طائرات الرئيس بومدين تضرب مدينة العفرون التي كانت تعبرها المصفحات و الدبابات، الكرسي و ما أدراك ما الكرسي يا خويا دحمان، لكأنّما كتب على الجزائر أن تعيش في حالة حرب إلى الأبد ... مواطنون ماتوا في "العفرون" تحت وطأة الدبابات و المصفحات و معظمهم من الفلاحين"[17]، كماتطرق الروائي أيضا إلى الاغتيالات السياسية غير أنّ عرضه لها كان بأسلوب مباشر و لعلّ ذلك

راجع إلى حرصه على توضيح الصورة السياسية آنذاك، و الواقع أنّ توظيف التاريخ في النّص الروائي عملية ليست بسيطة على الإطلاق إنّها تتطلب من الروائي حذرا علميا لا تملي عليه تقديم التاريخ كما تقدمه كتب التاريخ، إنّ الحذر العلمي يحرك الرواية في إطار تاريخي اجتماعي رسم مسبقا و لكن يجب أن تظل الرواية رواية، ربما تؤرخ حينها لمن تهملهم كتب التاريخ، للنّاس عامّة"[18]، لقد حاولت رواية خويا دحمان أن تغطي التاريخ السياسي للثورة و ما بعدها خاصة ما تعلق بالمحطات الكبرى التي كانت سببا في تعميق مأساة الجزائر، كتركيزه على الخلافات السياسية و ما ميزها من عنف ثمّ موت الرئيس هواري بومدين و كيف خلفه الشاذلي بن جديد إلى أن يعمل إلى أحداث أكتوبر 1988، وهي السنة التي عرفت فيه الجزائر منعرجا سياسيا خطيرا و ما أعقبها من تعددية حزبية و قد كانت تلك الأحداث مادة خصبة للروائيين كرواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج تنطلق من الرصاصة التي اخترقت رأس "مريم" و أصبحت نواة لكل ما يأتي بعدها من عنف، و هنا "يتجسد الزمن التاريخي في استثمار النّص الروائي لوقائع تاريخية تؤطر سيرورته و تعكس بالتالي الواقع الخارجي كمادة حكائية"[19] فورود التحديد الزمني "الجمعة الحزينة من شهر أكتوبر 1988م" في بداية رواية "سيدة المقام" يعني أنّ أحداث الرواية و " تيمة العنف" على وجه التحديد ينبغي أن تفسر انطلاق من هذا التاريخ إذ "تصبح الرصاصة في الرأس علامة إشارية تدل على التحولات الحاصلة في زمن الإنسان الجزائري الذي دخل مرحلة جديدة من عمره يميزها العنف و من جهة أخرى تؤدي الرصاصة إلى جانب الوظيفة اللّسانية وظيفة دلالية، حيث تمثل مصدر الوعي، كان اختيارها للرأس هدفا -و إن كانت طائشة- محاولة لاغتيال الوعي الطامح إلى مستقبل وفق وجهة نظر خاصة تبئر النّص في مستوى آخر هي محاولة لاغتيال المرأة كوعي بدأ يتشكل في زمن الحاضر"[20] و في سياق أحداث أكتوبر 1988 يركز السارد على البعد الاقتصادي و السياسي بشكل خاص لأنّهما سيمهدان لعنف آخر أشد و أقوى و ذلك حين تحدث من جهة على البترول و الأزمة الاقتصادية التي تعد سببا في هذه الأحداث حين قال "حضارة النفط يا حبيبي قلتها لي و أنت تفرك يديك في ذلك الصباح الخريفي، نزل سعر البرميل، عادة البلاد إلى بدايتها الأولى"[21] ، أمّا مرحلة التسعينيات فهي المرحلة الأكثر دموية بعد مرحلة الاحتلال الفرنسي، فقد دخلت الجزائر موجة من العنف تركت آثارا جسيمة على الفرد و المجتمع، و قد رصد كتاب رواية المحنة هذا الواقع الأليم، ففي رواية "دم الغزال" تطرق الروائي مرزاق بقطاش إلى حادثة اغتيال الرئيس الراحل محمد بوضياف -رحمه الله- و قد ركز في عمله على فضاء المقبرة التي التقى فيها مشيعون على اختلاف مشاربهم الأيديولوجية و السياسية و الاجتماعية و هو من خلال وصفه لهذه اللّحظة التي يواري فيها جثمان الرئيس الثرى، حاول أن يكشف عن واقع الجزائر المشتة يقول "النخبة السياسية كلّها موجودة في جانب من هذا المربع، عفوا،

اللّعنة السياسية كلّها مبثوثة في هذا المكان! رئيس سابق أمضى جانبا كبيرا من حياته في السجن، و رؤساء وزراء من عهود مختلفة، أجل عهود مختلفة على الرغم من أنّ عمر الدولة باللغة الحديثة لا يتعدى ثلاثين عاما، عدد كبير حقا، لقد كانت المقبرة المكان الوحيد الذي يجمع هؤلاء السياسيين عنوة، "تاريخ الجزائر كله يتجمع في هذه اللحظات ضمن هذا المربع الرخامي المهزوز، الأحياء و الموتى، الثوار و اللاثوار، الوطنيون والمصاليون، جبهة التحرير الوطني الإشتراكيون و أشباه الشيوعيين، الإسلاميون والملاحدة وهم بمجرد خروجهم من المقبرة سيعودون إلى سابق عهودهم في المناورات و الدسائس"[23]، لقد استطاع الروائي من خلال فضاء المقبرة أن يمرر رسالة تتعلق بالصراع السياسي بين مختلف رجال السياسة الذين يجمعهم حيز مثل هذا بينما "تعجز البلاد كلّها عن ضمهم من أجل خدمة مشروع واحد"[24].

إننّا من خلال وقوفنا عند حضور التاريخ في "رواية المحنة" نستنتج أنّ النصوص التي تناولت العشرية السوداء استثمرت تاريخ الثورة و ما بعد الاستقلال في تناولها لموضوع العنف، فهي لم تقف عند حدود ما جرى في هذه المرحلة بل تتعداها إلى مراحل سابقة بغرض رسم صورة كاملة عن حقيقة الصراع و العنف الذي عاشته الجزائر و ذلك بطريقة فنية و جمالية.

هوامش واحالات الدراسة :

1- داود محمد: الأدباء الشباب و العنف في الوقت الراهن: إنسانيات المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا و العلوم الاجتماعية العدد 10 جانفي- أفريل 2000، ص 39.

2-شارف مزاري: أدب المحنة في الرواية الجزائرية المعاصرة: الأدبي و الأيديولوجي في رواية التسعينيات (رواية الطاهر وطار واسيني الأعرج أنموذجا)، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي في الجزائر، المركز الجامعي، سعيدة 16/15 أفريل 2008 ص85.

3-أحمد سيد أحمد: الرواية الانسيابية و تأثيرها عند الروائيين العرب، دار المعارف، 1985 ص81.

4-أحمد فرشوخ: جماليات النّص الروائي مقاربة تحليلية لرواية "لعبة النسيان"، دار الأمان ط1 1996 الرباط ص81.

5-براري الموت: "خويا دحمان": دار الفضاء الحر، 2007 – ص22-23.

6-المصدر نفسه ص 25.

7-المصدر نفسه ص 25.

8-المصدر نفسه ص 37.

9-المصدر نفسه ص37.

10-المصدر نفسه ص 52.

11-عبد القادر بن سالم: جدل التاريخي و الفنّي في النّص الروائي الجزائري الحديث: أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي في الجزائر (الأدبي و الأيديولوجي في رواية التسعينيات) المركز الجامعي سعيدة 16/15 أفريل 2008 ص287.
12-كلود لوزيو: العنف، التعذيب، الاستعمار، ترجمة: الصادق عماري، إبراهيم سعدي، مراد أعراب دار القصبة للنشر، الجزائر 2007 ص222.
13-مرزاق بقطاش: براري الموت: خويا دحمان ص 26.
14-المصدر نفسه ص30.
15-المصدر نفسه ص 99.
16-أنظر الرواية مقولة "الجزائر فرنسية" على لسان الرئيس فرونسوان ميتيران ص57.
17-المصدر نفسه ص 105.
18-صالح إبراهيم: الفضاء و لغة السرد في روايات عبد الرحمان منيف، ط1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص 90.
19-أحمد فرشوخ:جمالية النّص الروائي، مقاربة تحليلية لرواية "لعبة النسيان" ص 80.
20-الشريف حبيلة: الرواية و العنف: دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، دار عالم الكتب الحديث ط1، الأردن 2010
ص 123.
21-واسيني الأعرج: سيدة المقام: دار الفضاء الحر 2007 ص 146-147.
22-مرزاق بقطاش: براري الموت: دم الغزال ص 178.
23-المصدر نفسه ص188.
24-المصدر نفسه ص 179.